المحاضرة الخامسة: الأوضاع العامة للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي

خطة الدرس:

أ- الأوضاع السياسية.

ب- الأوضاع العسكرية.

ت- الأوضاع الاقتصادية.

ث- الأوضاع الاجتماعية.

مقدمة

إن الأوضاع العامة للجزائر سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية تأثرت بشكل كبير بطبيعة وخصائص الحكم العثماني بها الذي استمر ما يزيد عن ثلاثة قرون من جهة، وبشخصيات الحكام الأتراك من جهة أخرى، حيث تميزت هذه الأوضاع بالاستقرار والازدهار في بعض الأحيان والاضطرابات والانحطاط أحيانا أخرى.

وفي هذه المحاضرة عن الأوضاع العامة للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي سنتناول الفترة التي بدأت فيها الجزائر تأخذ منعرجا خطيرا بنهاية القرن 16، بعد أن كانت تتمتع بمكانة مرموقة وهيبة دولية، مركزين على الفترة الأخيرة من حكم الدايات (1800-1830)، والتي عرفت فيها الجزائر تدهورا عاما طرأ على مجالات الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

أ- الأوضاع السياسية:

رغم أن عهد الدايات كان مليئا بالثورات والمؤامرات ولم تكن مدة حكمهم تستمر طويلا، إلا أنه يمكن أن نستثني من ذلك الفترة التي حكم فيها الداي محمد بن عثمان باشا في النصف الثاني من القرن 18 أي من سنة (1766 – 1791)، حيث عرفت الجزائر في ظل حكمه استقرارا نسبيا وذلك بالتعاون مع كل من الباي محمد الكبير وصالح باي قسنطينة في ادارة شؤون البلاد داخليا وخارجيا، كما استطاع الداي محمد بن عثمان باشا أن يتغلب على العجز الذي كانت تعاني منه الميزانية العامة للجزائر .

وفي مجمل الحديث عن الأوضاع السياسية الداخلية للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي يمكن القول أنها تميزت بعدم الاستقرار السياسي والأمن، حيث تواصلت الاضطرابات، والتناحر على الحكم والاستبداد، والاغتيالات ونشوب الفتن الأهلية والتمرد والعصيان من طرف الأهالي بسبب السياسة التي انتهجها الدايات بإرهاق الأهالي بالضرائب والإتاوات، علما أن التمرد والعصيان كان يواجهه الدايات بالقوة وسفك الدماء، يذكر أن السياسة الجبائية التركية المرتفعة طبقت عندما نقصت المغانم البحرية في السنوات الأخيرة من العهد التركي بالجزائر بسبب فقدانها السيطرة على البحر المتوسط.

ومن بين التمردات والثورات على الحكم التركي تلك التي قام بها سكان العاصمة والقبائل المجاورة عام 1692 بعد اقدامهم على اشعال النيران في مرافق الميناء وبعض السفن الراسية به، وحركة التمرد الواسعة التي قام بها كراغلة تلمسان في عهد الداي ابراهيم باشا كوجوك، حيث سيطروا على المدينة وطردوا منها الحامية التركية، كما حاولوا الاتصال بكراغلة عاصمة الجزائر للانضمام الى حركتهم، لكن الداي تفطن للأمر وقضى على تمردهم بالقوة، بالإضافة إلى تمردات أخرى عرفتها مختلف مناطق الجزائر مثل (القبائل الكبرى عام 1767، سكان البليدة- الحضنة- واحات الجنوب- الاوراس).

كما نذكر في هذا الصدد ثورة ابن الأحرش التي ظهرت ما بين 10 جوان إلى 10 جويلية 1804، حيث أعلن ابن الأحرش الجهاد للقضاء على سلطة بايلك الشرق، وبعد سلسلة من الملاحقات تمكن الباي من وضع حد نهائي لثورته. يذكر بعض المؤرخين أن الثورة العارمة لابن الأحرش بالشرق الجزائري جاءت بتحريض من انجلترا ضد الحكم التركي، وذلك بعد الامتيازات الكبيرة التي قدمها الداي لفرنسا في الجزائر خاصة في ميدان استغلال المرجان بالقالة

كما ظهرت حركات تمرد أخرى انتشرت في عدة مناطق من الجزائر لتشمل أوساط القبائل الجبلية والجهات الشرقية والوسطى من البلاد.

ب- الأوضاع العسكرية: واجهت الجزائر والدولة العثمانية تهديدات خارجية كبيرة، خاصة من جانب اسبانيا والدول الايطالية وفرسان مالطة، مما جعلها (أي الجزائر) تهتم بأسطولها الحربي تدفع به الغارات المسيحية عن مدنها وسواحلها، وتحمي التجارة الاسلامية والمهاجرين الأندلسيين، وحجاج بيت الله الحرام من اعتداءات القراصنة الأوروبيين، وتدعم به الدولة العثمانية في حروبها، وتغنم من

خصومها . يجدر بالذكر أن الدوافع الروحية التي كانت وراء الجهاد البحري للأسطول الجزائري ضعفن بالتدريج، ليصبح الربح هو مبدأه الأساس.

وقد كانت النواة الأولى لأسطول الجزائر تلك السفن التي أتى بها الأخويين خير الدين وعروج لإنجاد إخوانهم المسلمين في بجاية والجزائر، وعددها أربعة عشر وحدة، تمركز الأسطول في مدينة الجزائر التي حصن ميناؤها ودعم بالمدافع، ليصبح قاعدة بحرية هامة في بناء المراكب الجديدة واصلاح القديمة والمعطوبة وتجهيزها. كما أصبحت موانئ المدن الساحلية الأخرى كشرشال ودلس وبجاية وجيجل وعنابة وتنس قواعد أخرى للأسطول. وكان الخشب يجلب من غابات شرشال وجرجرة وبجاية وجيجل والقل، كما أنشئت مصانع لصناعة المدافع والبارود والذخيرة وقطع الغيار.

بلغ الأسطول الجزائر أوج قوته في منتصف القرن 17 مكنته من صد وافشال جل الحملات العسكرية على الجزائر كالحملات الاسبانية والفرنسية والهولندية وغيرها، كما كان الأسطول درعا واقيا للسواحل المغاربية ضد القرصنة والعدوان الأوروبي. وقد تعاظم دور الأسطول الجزائري في حماية التجارة الدولية من القراصنة المتربصين عبر البحر.

لكن دور البحرية ونشاط الأسطول الجزائري بدأ يتضاءل مع مطلع القرن 19 إلى أن اضمحل نهائيا سنة 1830، ويعود انهيار الأسطول إلى العوامل التالية:

- اتفاق الدول الأوروبية على ضرورة التصدي للجزائر وتقليص دورها.
- تقييد الجزائر بمعاهدات شراء سلامة تجارات الدول الأوروبية مقابل بعض الهدايا والغرامات، مما قل من نشاطات الأسطول الجزائري فتقلص عدد قطعه من حوالي 100 قطعة عام 1588 إلى 14 قطعة رئيسية سنة 1825.
- الغارات المسيحية المتكررة على مدينة الجزائر، ومن أخطرها هجوم الأسطول الانجليزي الهولندي المؤلف من 39 بارجة بقيادة اللورد الأميرال اكسموث في 27 أوت 1816، وتمكن من تخريب قسم من أسوار مدينة الجزائر ومبانيها وميناءها، وتدمير معظم أسطولها.
- اشتراكه في حروب الدولة العثمانية، وآخرها معركة نافارين 1827 أثناء حرب اليونان التي دمر فيها ما تبقى من الأسطول.

· تخلف صناعة السفن الجزائرية ومهارة الأسطول قياسا إلى التقدم الصناعي الهام الذي أحرزته مثيلاتها في دول الغرب، والمهارة الفنية التي اكتسبتها الأساطيل الأوروبية.

وعلى صعيد آخر ارتكبت الجزائر خطأ فادحا يتمثل في تخليها عن الصناعة البحرية (كانت تصنع بواخرها الحربية بنفسها) نظرا لانشغال التقنيين والمهندسين والفنيين في الحرب، وكذلك بسبب تنازلها عن غابات الكرستا الموجودة ببجاية لفائدة التجار اليهود وفي مقدمتهم بكري وبوشناق، حيث أقدم هذين الرجلين على بيع أخشاب الغابات إلى انجلترا التي اهتمت بصناعتها البحرية وكرست كل جهودها لتطويرها، وعليه فالجزائر توقفت عن الصناعة البحرية وبريطانيا ضاعفت المجهود.

ت- **الأوضاع الاقتصادية:** ان عدم الأمن والاستقرار السياسي وانتشار حركات التمرد والاضطرابات كان له انعكاسات سلبية على المجال الاقتصادي، حيث أهملت الفلاحة بتوقف الحرث والزرع، وحدثت مجاعات من جراء كثرة الفتن والأهوال واهتزاز المجتمع. كما أغلقت الأسواق خوفا من قطاع الطرق، إضافة إلى ظاهرة الجفاف التي استمرت سنوات خاصة بشرق البلاد وارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة.

يجدر بالذكر أن الاهتمام الكبير للعثمانيين بالجوانب العسكرية والسياسية انعكس سلبا على الجانب الاقتصادي، حيث لم يكن للعثمانيين سياسة اقتصادية واضحة المعالم من شأنها أن تنهض بالبلاد، ويتجلى ذلك من خلال عدم اهتمام الحكام الأتراك بتطوير البنية التحتية للإيالة الجزائر، فمثلا بالرغم من اهتمام العثمانيين بالبحر لا نجد لدولة أثرا في انشاء الموانئ الصالحة للتجارة ، حيث كان الاهتمام بالموانئ الجزائرية بقصد ايجاد مرسى آمن لسفن القرصنة وليس بقصد التجارة، كما لم تتدخل الدولة لتحسين وسائل الزراعة، ولم تسهم في الوقاية من الأضرار الطبيعية، أو الآفات الزراعية التي كانت تتعرض لها البلاد بصورة مستمرة.

ث- **الأوضاع الاجتماعية:** لم تكن الأوضاع على الصعيد الاجتماعي أحسن من غيرها، حيث عرفت الجزائر انتشار الأوبئة خاصة في الفترة التي بلغ فيها مرض الطاعون درجة خطيرة وهي الفترة الممتدة من جوان 1817 إلى سبتمبر 1818، بالإضافة إلى والزلازل التي ضربت كثيرا من المدن الجزائرية (مدينة الجزائر والمدية عام 1632، زلزال الجزائر العاصمة 1665، شرشال، بجاية والجزائر

العاصمة عام 1716، ثم زلازل 1723 و1724 و1755 و1760 التي خربت البليدة، وزلزال وهران عام 1790) فتسببت في الكثير من الخسائر البشرية والمادية هلاك الكثير من الأرواح والممتلكات.

· **ظهور الطبقة الدخيلة من اليهود:** بالرغم من وجود عدة فئات أجنبية مسيحية في الجزائر، إلا أن الجماعة النشيطة التي ارتفع شأنها في هذا البلد هي فئة اليهود، لأنها كانت تتعامل مع الداي وقادة الجيش (الرياس) ويقومون بشراء وبيع البضائع أو الغنائم التي يحصل عليها الرياس، كما اشتهر اليهود بعمليات السميرة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية إلى درجة أنه أصبح من الصعب على أي عربي أن يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجورة من أحد اليهود.

وفي بداية القرن التاسع عشر تجلت في الجزائر نفوذ شخصين يهوديين وهما بوشناق وبوخريص (بكري)، إذ كانا يقومان لوحدهما بدور البنوك في الجزائر، ويحتكران الأسواق التجارية الجزائرية وخاصة في ميدان تصدير الحبوب فامتد نفوذهما حتى في بلاط الحكم، فأصبحت لهما قوة تأثير في القرارات السياسية والاقتصادية وكانا سببا مباشرا في احتلال فرنسا للجزائر عام 1830، ولسبب نفوذهم الكبير وسوء تصرفهما قام أحد الجنود الأتراك عام 1805 بقتل اليهودي بوشناق وهو خارج من قصر الداي بالجنينة، أما صديقة بوخريص فأقيل بأمر من الديوان عام 1811.

المراجع المعتمدة في المحاضرة:

1-عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**، ط 1، بيروت، دار العرب الاسلامي، 1997

2-عمار عمورة، **موجز في تاريخ الجزائر**، ط 1، الجزائر، دار ريحانة، 2002

3-صالح فركوس، **المختصر في تاريخ الجزائر (من عهد الفينقيين إلى خروج الفرنسيين 814 ق.م – 1962 م)**، (ب.ط)، دار العلوم للنشر والتوزيع، (ب.س.ط)

5-جمال الدين سهيل، **ملامح من شخصية تاريخ الجزائر خلال القرن 11 و17 م**، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المركز الجامعي غرداية، العدد 13، 2011

6-محمد مقصودة، **الكراغلة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني (1519 -1830)**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، 2014

7-مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830**، ط 2، الجزء الثاني، الجزائر، شركة دار الأمة، 2007.

8-محمد العربي الزبيري، **محاضرات في مقياس تاريخ الجزائر من القرن 16 إلى يومنا هذا**، ألقيت على طلبة السنة الثانية اعلام بجامعة الجزائر 03، السنة الجامعية: 2001-2002 .

9-أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)**، ط 3، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982

10-بشير بلاح، **تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989)**، ج 01، الجزائر، دار المعرفة، (ب.س .ط)